خاتمة

من المفارقات المثيرة للدهشة في حياة المفكر الجزائري محمد أركون أنه يتكلم ويكتب بشكل جيد اللغة العربية، ورغم ذلك يتردد أنه لا يعرف من لغة الضاد سوى بضع كلمات فقيرة.. ويقال أيضا إنه لا يعرف من الفكر الإسلامي إلا القليل الضحل، مع أنه متبحر إلى حدود مذهلة في تراثنا وفكرنا الإسلامي ويأخذ موقفا نقديا يكاد يصل إلى حدود «العداء الفكري» في بعض الأحيان إزاء معظم ما يكتبه المستشرقون عن حياتنا الفكرية.

والحق إن أركون يتألم كثيرا لهذه الصورة المغلوطة والشائعة عنه. وأكثر ما يؤلمه أن المفكرين والباحثين الجادين في مصر على سبيل المثال يغضون الطرف عنه جملة وتفصيلا.. وإلا فأين الدراسات التي تعالج فكره، أو الندوات التي يساهم فيها؟

وفي ظني أن هذا الموقف من أركون قد لا يكون «موقفا منه» بقدر ما هو سمة من سمات حياتنا المعاصرة التي أضحى فيها عدم الاكتراث بكل ما هو «جيد ومفيد وجاد» شيئا -للأسف- طبيعيا ومألوفا.. وأسباب هذا الظن - كما أتصورها - هي أن أركون باعتراف القاصي والداني يعتبر قيمة فكرية أساسية في حياتنا، فضلا عن كونه بابا رئيسيا - من وجهة نظر مؤرخي الفكر- يعبر بنا إلى عالمنا الفكري والإسلامي الرحب..

بمعنى آخر، إن من يؤرخ لحياتنا الفكرية ليس بوسعه أن ينظر «بنصف عين» إلى إنتاج محمد أركون المتعدد والمتشعب في مجال الدراسات الإسلامية والعربية.. فالرجل أوقف حياته منذ بواكير أيامه على رسالة يحدها طرفان، الأول هو التنقيب

في تراثنا الفكري لإظهار جوانب «العقلانية» و «الإنسانية» فيه. والثاني هو القيام بدور الوسيط الفكري بين الإسلام وأوروبا بهدف إجلاء الضباب أو الغموض أو سوء الفهم الذي يريد على حد تعبيره – على كلا الطرفين بسبب التوترات والصراعات السياسية.

وللإنصاف يجب أن نذكر أن كل من اقترب من محمد أركون، أو عرف إنتاجه جملة وتفصيلا لابد سيدرك على الفور أن هذه الرسالة لم تغب لحظة واحدة عن بال وخيال أركون عبر سنوات عمره السبعين.

فالكتابة بشكل عام عند أركون، وكتابة الفكر بشكل خاص ليست مجرد تسجيل أو تبليغ وإنما هي –كما يقول– تخريج للواقع في أسلوب شخصي طريف وأصيل وإنتاج فني يتسم بتفاعل خاص بين فكر وواقع ولغة.

وهو يرى أن الفكر يختلف إدراكه للواقع باختلاف تكوينه الوجودي والوجداني والعلمي. كما أن الواقع يتنوع بتنوع البيئة الجغرافية والاجتماعية والثقافية.. أما اللغة فتتفاوت بتفاوت ثروتها العلمية ومرونتها الأدبية ومنزلتها من الفصحي المكتوبة واللهجات الشفاهية.

ويؤمن أركون بأن كتابة المفكر تمتاز عن سائر الممارسات الكتابية بما أن المفكر يركز اهتمامه على اختيار الألفاظ ليحولها إلى مفاهيم شاملة لمظاهر عديدة وخصائص ووظائف متنوعة يختص بها كل موضوع من موضوعات البحث..

ويقترب أركون أكثر وأكثر من ثورته الخاصة بالتاريخ الإسلامي فيذكر أنه يواجه صعوبات جمة منها أنه كمؤرخ للفكر الإسلامي في هذه المرحلة التاريخية الصعبة التي يطغى عليها الخطاب الأيديولوجي والرقابة السياسية والاجتماعية معا لا يزال يتوقف ويعدل عن معالجة بعض الموضوعات، ويتجنب المحاذير من استخدام الألفاظ والعبارات حتى لا يفسرها القارئ المسلم على عكس ما ينتويه من الإفادة العلمية، وحتى يسلم –كما يقول– من تكفير من يجهل قواعد الفكر الحر، ومن يسمح لنفسه أن يرتقي إلى مرتبة المفتي المجتهد وهو أبعد الناس عن هذه المرتبة.

ولا يفوتنا ونحن بصدد الحديث عن دور محمد أركون في فكرنا العربي المعاصر

أن نشير إلى أن أول كتاب له كان بعنوان «الفكر الإصلاحي عند طه حسين».. وضعه عندما كان طالباً بجامعة الجزائر وكانت رغبته شديدة في أن يفهم ويقوم إسهام عميد الأدب العربي في تحديث الخطاب الإسلامي وتحديد مفهوم الدين ووظائفه في المجتمع. نقطة أخرى جديرة بالإشارة هي أن أركون كان ولا يزال يحرص على أن تلتصق كتاباته بواقع المجتمعات التي ينتمي إليها وهي كما يحددها بنفسه: المجتمع البربري الذي ولد فيه، ثم المجتمع المغربي بدوله الخمس تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا ثم الأمة العربية الناطقة باللغة العربية المنتجة للثقافة، والأمة الإسلامية التي تمتد جغرافيا من اندونيسيا إلى المحيط الفرنسي الذي عاش فيه والأمة الأوروبية التي ستتحد عما قريب على أساس تاريخ وثقافة وفكر، ساهم في تكوينها الإسلام والفكر العربي في مرحلته المبدعة.

أما الجانب الآخر من رسالة محمد أركون الفكرة فهي كشف زيف الصورة التي يعرفها الغربيون عن الإسلام، فيرى أركون أن أوروبا لا ترى في الإسلام سوى مجرد طقوس عبادية واقعة تحت ضغط المراقبة الاجتماعية المتشددة أما البعد الفكري والروحي والحضاري للإسلام فهو شبه غائب، والسبب من وجهة نظر أركون هو أن الاستشراق الكلاسيكي «والأدبيات السياسوية» المتسرعة والمنتشرة عن الإسلام والحركات الإسلامية في الغرب حالياً تزيد للأسف من انتشار هذه الصورة عن الإسلام المجرد الذي يقف فوق الزمن والتاريخ. بمعنى الإسلام الأقنومي الذي لا يتأثر بشيء ويؤثر على كل شيء بل إن الأدبيات الاستشراقية تضفي ثقلها العلمي على هذا التصور السكوني الجامد عن الإسلام والمسلمين ماضيا وحاضرا.

•• يبقى أن نذكر في نهاية هذه العجالة أن محمد أركون هو رمز عربي إسلامي أنضجته أرض الجزائر مثلما أنضجت من قبله مالك بن بني صاحب «الظاهرة القرآنية» وإذا كان هذا الأخير، أتيح له أن يعرف وينتشر في مصر قبل أكثر من ثلاثين عاما فليس أقل من أن يأخذ هذا الرجل (محمد أركون») فرصته هو الآخر.. لأنه لا معنى لأن يكون فكره معروفاً في أوروبا وغالبية دول العالم الإسلامي، بينما يظل غائبا أو بالأحرى مغيبا في مصر.